

مخطوطات البحر الميت تكشف المسكوت عنه

هالة العوري

تلاحقت اللفائف الجلدية الداكنة في التدفق من كهوف قمران في النصف الثاني من أربعينيات القرن الحالي، وما إن تسلم الفريق الدولي، التابع للمدرسة الفرنسية للدراسات التوراتية في القدس، مقاليد إعداد المخطوطات للنشر حتى فرض عليها حصارا محكمًا، قل أن شهدت الأوساط الاكاديمية له مثيلا، استمر قرابة أربعة عقود بلغت ضراوته حد توريث أعضاء الفريق ما في حوزتهم من المخطوطات إلى باحثين بعينهم .. ضاربين عرض الحائط بالشرعية القانونية والأعراف العلمية ! وقد أخذ الفريق الدولي يماطل في نشر المجموعة الكاملة لما بات يعرف بمخطوطات البحر الميت، مكتفيا بالنزر اليسير لمقاطع من أسفار العهد القديم «بين حين وأخر، غير عابئ بإلحاح كبار العلماء والباحثين ولهفتهم للاطلاع عليها .. وكان للفريق حق الانفراد بتقديم شروطه ورؤاه الخاصة لمحتوى المخطوطات، التي اكتسبت بفعل التراكم الزمني، ودعم المؤسسات الغربية، مصداقية مسلما بها .. يخاطر بسمعته العلمية كثيرا من يجرؤ على انتقادها أو تحديها ..

غير أن هذا الحرص والتكتم جاء متأخرا بعض الشيء فقد سبق تكوين الفريق وإمساكه بزمام الأمور تسرب المخطوطات الخمس الأولى إلى الولايات المتحدة الأميركية .. وجاء منطوق النصوص واضحا جليًا ليدرك الباحثون فور اطلاعهم عليها أنهم أمام بقايا مكتبة عامرة تعود إلى جماعة دينية ليست معروفة للعالم .. اتخذت من منحدرات قمران المحاذية للبحر الميت مقرا لها .. والأهم، أنها قريبة العهد من الالفية الأولى مما يؤهلها للكشف عن خفايا القرن الأول للميلاد، الذي يعد رغم أهميته القصوى الأقل توثيقًا والأكثر غموضًا.

جاءت النصوص حافلة بالدلالات المغايرة للشائع والموروث، وتقدم فلسطين وجودًا تاريخيًا حقيقيًا وليس عالمًا سحريا مبهما وفقا للموروث اليهودي – المسيحي المتأصل في الغرب وتضع الشخصيات، أيا كانت مكانتها الدينية، في سياقها التاريخي وفي مواجهة الشخصيات والمؤسسات الفاعلة في القرن الأول .. مما





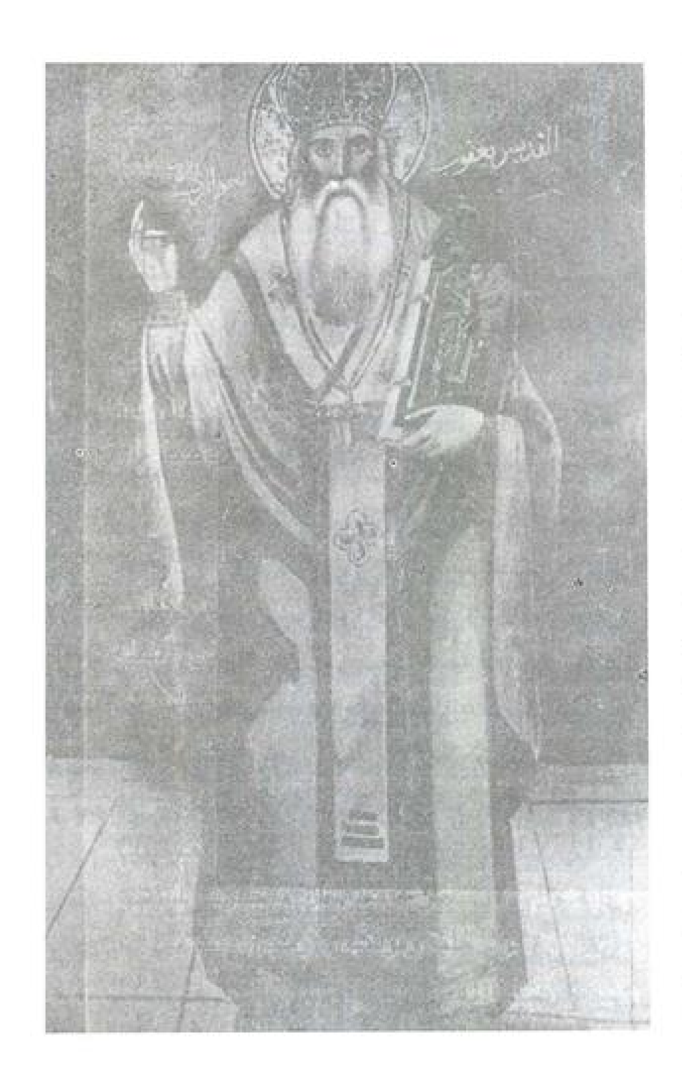
يساعد كثيرًا على بناء نسيج تاريخي موضوعي بالمعنى الدقيق للكلمة .

وقد قام الباحثون بتصنيف المخطوطات إلى قسمين :

القسم الأول يتعلق بمجموعة النسخ من أسفار «العهد القديم»، وهي تسبق النسخة المعروفة للعالم بنحو ألف عام .. تتضمن رؤى وشروطًا مغايرة تشكل في مجموعها ٢٠ إلى ٢٥ ٪ من كمية المخطوطات . إن المثير واللافت في آن معًا، هو اتفاق النسخ المكتشفة في جميع نقاطها الأساسية مع النسخة السامرية للتوراة، التي يرفضها الغرب باعتبارها هرطقة غير مقيدة بنص معين . والسامريون، كما هو معروف، أصغر طائفة دينية في العالم لا يتجاوز عدد أفرادها بضع مئات .. تؤمن بالأسفار الخمسة الأولى وترفض الباقي باعتباره من صنع الإنسان. وتأتي المخطوطات لتكشف الحقيقة السافرة، بعد ألفي عام، بأن نسخ العهد القديم، سواء التوراة العبرية المعروفة بالماسورا أو اللاتينية المعروفة بالسبعينية، قد جاءت كلتاهما بالاختيار الذاتي والحر، الأمر الذي يفسر اختلافهما وينفي في الوقت نفسه عن النسخة العبرية تميزها لمجرد كونها بالعبرية .

لم تتوقف مفاجآت البحر الميت عند هذا الحد، فقد استنفر الجميع وفي مقدمتهم إيجال يادين، قائد العمليات في الهاجاناه سابقًا وأستاذ الأركيولوجي في الجامعة العبرية لاحقًا، لدى العثور على نصوص قمرانية خاصة بالتقويم في منطقة الماسادا..

الأمر الذي يشكل تحديًا للمفهوم السائد عن الماسادا ويكشف أن المدافعين عن القلعة كانوا يتبعون التقويم الشمسي نفسه المتبع لدى جماعة قمران خلافًا للتقويم القمري


الأخ يتعوب الذي غاب طويلا

المتبع لدى اليهود .. مما يدل على وجود روابط بين الجماعتين والموقعين .. لم يقو يادين على رؤية أو تصور وجود علاقة ذات بعد عقائدي أو تنظيمي بين الموقعين، خشية تبدل المأثور الرائج عن الماسادا .. فعمد إلى اختلاف شتى الأعذار في محاولة مستميتة لإبعاد أية شبهة نصرانية عن الماسادا، قد تكشفها المخطوطات. وجاء موقف يادين المكابر متسقا ضمنيًا مع الفريق

الدولي، فالمهم بالدرجة الأولى هو الحفاظ على المفاهيم الموروثة السائدة .

والسؤال الذي يطرح نفسه الآن، كيف يمكن لجماعة يهودية متزمتة، حسب إجماع الفريق الدولي، اعتماد نسخة سامرية هرطقية ؟!

أيا كان الجواب، فالمطلوب حاليا في الغرب وضع نسخة معيارية جديدة ، أقرب إلى ما قاله الأنبياء أو دونوه، وذلك بالرجوع إلى جميع الرؤى المتوافرة، بما فيها وثائق قمران .. وتلك مهمة بالغة التعقيد والدقة، ليس أقلها التخلص من الأهواء الذاتية، والتزام الموضوعية والتجريد.

أما القسم الثاني فقد أثار دهشة العلماء والباحثين حين أتى مشتملا على موضوعات غير توراتية لم يطلع العالم على مثلها، فضلا عن شروحات الجماعة وتعليقاتها على مقاطع بعينها من أسفار العهد القديم، جاءت النصوص تعبر عن حركة معارضة لمؤسستي الحكم والهيكل المواليتين للسلطة الأجنبية الوثنية المحتلة، يونانية كانت أم رومانية، تمتد من الفترة المكابية (١٥٠ - ٣٠ ق . م) إلى ما بعد ظهور النصرانية في فلسطين في القرن الأول للميلاد .. فالنصوص تحفل بمجموعة من القيم والمبادئ مثل الإيمان والاستقامة والعمل، وكلها قيم رفيعة تكمن في جوهر الديانات السماوية، غير أنها تضمنت أيضًا انتقادات مريرة ضد الكهنة خاصة كبارهم لاكتنازهم الثروات وتدنيسهم الهيكل حرصا على مصالحهم الخاصة .. وحملت بشدة على ممارسات جنسية، مثل الزنا والخيانة وتعدد الزوجات، وكلها ممارسات اشتهرت بها الأسرة الهيرودية الحاكمة بوجه خاص . إضافة إلى ذلك، لم تغفل النصوص الحديث بإسهاب عن الشخصيات الرئيسية المنغمسة في الصراع،

كيف زيَّف يادين «الجنرال» المخطوطات القمرانية !

وفي مقدمتها المعلم البار وأبناء النور والكاهن الشرير والكذاب، وأبناء الظلام .

كانت أكثر المواد مدعاة للإثارة والدهشة، مخطوطات، قانون الجماعة، والهيكل .. و«الحرب»، فقد احتوت الأولى على الواجبات الدينية وآداب السلوك ولائحة عقوبات، فضلاً عن شروط الانضمام للجماعة ومرحلة الإعداد التي تستغرق ثلاث سنوات، يتنازل بعدها العضو عن ثروته وممتلكاته الخاصة لصالح صندوق الجماعة ويخضع لشعيرة الاغتسال إيذانا بحضوره الواجبات الجماعية المقدسة .. وللجماعة مجلس يتكون من اثني عشر عضوا وربما ثلاثة كهنة «لحفظ الإيمان في الأرض» وللتكفير عن الآثام عبر المعاناة والإنصاف . وتدعو الوثيقة إلى التمسك بشريعة موسى حتى مجيء مخلص، أو مخلصين، والنبي . تأتي وثيقة الهيكل بمثابة كتاب سادس للتشريع، فهي في جوهرها ضرب من التوراة المختارة للجماعة ، لتقدم تخريجا مستجدا، لم يتضمنه سفر ((اللاويين ٧/٨ - ٢٠)، يحظر الزواج من بنات الإخوة والأخوات .. وهناك الوثيقة النحاسية العجيبة التي تشير إلى مواقع كنز من الذهب والفضة، لم تفلح المحاولات الحثيثة في العثور عليه.

وزادت تعليقات الجماعة، على مقاطع بعينها في «العهد القديم»، حيرة الباحثين والعلماء» على حيرة لتركيزها على رؤيا الأنبياء والترانيم، خاصة أشعيا (٣/٤٠) و(١٠/٥٣) وهوشع (١/١١) وميخا (٣/٥) وحبقوق عند إشارتها للهجوم الذي شنه الكاهن الشرير على المعلم البار وإن لم توضح حجم الإصابة .. كذلك المزامير (٢١/٨٩) و(٧/٢) ..





« يعقوب » يعود مع قمران

وارتفعت التساؤلات التي أثارتها مخطوطات نجع حمادي، المكتشفة عام ١٩٤٥، مجدداً وتمحورت جهود الباحثين الغربيين حول نقاط نورد أبرزها في عجالة.

– تجاوز الفرقة اليهودية الفريسية يهودية الأحبار، وحدها دون الفرق الأخرى الصراعات المحلية والاجتياح الروماني عام ٦٨ م لتتسيد عالم اليهودية حتى اليوم.

– يعقوب البار الذي جاء «العهد الجديد» على ذكره (متى ١٣ / ٥٥ – ٥٧) وتناولته «أعمال الرسل» في الإصحاح الثاني عشر ورسالة غلاطية (١٨/١ – ١٩ و ٩/٢)، دون التنويه صراحة بموقعه في الجماعة الأولى.. رغم ورود رسالته في أسفار «العهد الجديد»..

– مدى حقيقة ما ذكره المؤرخون القدامى بتولي يعقوب البار قيادة الجماعة «الكنيسة الأولى» بعد السيد المسيح مباشرة، وتاكيدهم منزلته الرفيعة في فلسطين والشرق القديم في القرون الأولى. وتقواه وورعه الشديدين إلى حد تدافع الناس للمس أطراف ثوبه في أثناء مروره بهم.

أثمة علاقة بين إنزال «السنهدرين» عقوبة الرجم حتى الموت بيعقوب البار، – عقوبة التجديف على الله – وبين الثورة العارمة التي عصفت بفلسطين وجوارها الجغرافي في بداية ستينيات القرن الأول الميلادي ؟

– أكانت تعاليمه ومواقفه بمثابة حجر عثرة وتحدياً لروما وحلفائها المحليين مما دفعهم إلى القضاء عليه واختزال دوره ومنزلته إبان انتقال الثقل الديني من أورشليم إلى روما، عاصمة العالم آنذاك ؟!

– المصير الذي الم بأعمدة «الكنيسة الأولى» بعد الاجتياح الروماني وتدمير الهيكل عام ٧٠م، بقصد إخماد الثورة المشتعلة، وأين استقر المقام بالناجين منهم ؟

– دوافع التعتيم الذي ضرب مطولا حول يعقوب البار حتى جاءت مخطوطات نجع حمادي، التي ترجع إلى القرن الثالث أو الرابع للميلاد، والبحر الميت لتدفع به إلى دائرة الضوء كاشفة العلاقة الوثيقة التي جمعته بالسيد المسيح على نحو لم يتوافر لغيره.



جاءت المخطوطات باللغة الآرامية، أو العبرية غير المدرسية حسب المصطلح الأثير لدى

الغرب، تعبر عن الجانب المعارض المقهور الذي أغفل دوره وطويت قيمه.. ولم يكن يومًا جزءًا من الآلة الدعائية للإمبراطورية الرومانية. نصوص قمران ليست دينية بالمعنى الحرفي للكلمة ولكنها تعمل على وضع الدين في سياقه التاريخي، إذ تكشف عن صراع مرير بين الفرق الدينية المتناحرة ظل خافيًا قرابة ألفي عام.. كما تلقي الضوء على سطوة مؤسسة الهيكل وتحالفها مع السلطة المحلية والقوى الأجنبية المحتلة سعيًا وراء «الأشياء الناعمة».

المثير في الأمر، أنها لا تتفق مع اللهجة التصالحية التي تستشف في ثنايا الرسائل الدينية، وتلك معضلة زادت من حدة تطويق المخطوطات.

والنقاش محتدم منذ الثمانينيات، بعد الإفراج عن اللفائف، بين التيارين اللاهوتي المحافظ والباحثين الليبراليين، حول نقطتين أساسيتين : تاريخية المرحلة وهوية الجماعة المسئولة عن كتابة الوثائق.

التيار المحافظ يلتزم حرفيًا بالتاريخ التقليدي الشائع ويدعم موقف الفريق الدولي في أن جماعة قمران ليست سوى الطائفة اليهودية القديمة المعروفة بالإيسينيين استنادًا إلى بعض العملات البرونزية وإلى ما أورده المؤرخون الكلاسيكون، يوسيفوس وفيلو وبليني، رغم ما بينهم من تناقضات وعدم تجانس ما ذكروه حول الطائفة.. ليس أقله عزوف أفرادها عن الزواج فيما كشفت الحفريات عن رفات لنساء وأطفال، فضلًا عن مبادئ الجماعة المدونة في الزواج وتنشئة الأطفال. وهكذا أعاد المحافظون ظهور الطائفتين الإيسينية والفريسية إلى الفترة المكابية حوالى الفترة الممتدة من ١٥٠ - ٣٠ ق. م، كردة فعل واستياء من فساد الملوك المكابيين وكهنة الهيكل.. مما دفع الإيسينيون إلى الانزواء بعيدًا في منطقة قمران والانقطاع للعبادة ودراسة التوراة حتى داهمهم الرومان وقضوا عليهم عام ٦٨م إبان اجتياحهم أورشليم.

بذلك تصبح الجماعة حالة سابقة، غير ذات شأن، معزولة تماما عما حولها من أحداث وصراعات.. أمضت قرابة قرنين من الزمان تنعى الماضي البعيد وتنزل غضبها على الكهنة المكابيين وتمتدح معلمها البار.. حتى استأصلها الرومان فجأة دون سابق إنذار..

الجانب الليبرالي يعتمد، من ناحيته، على العملات البرونزية وعلى منطوق النصوص ودلالتها فضلا عن الدراسات التاريخية المعمقة.. خاصة أن المواد الواردة في وثائق قانون الجماعة والهيكل ودمشق، لم يرد ذكرها في المصادر اليهودية القديمة، ناهيك عن الصبغة القتالية التي تعكسها «وثيقة الحرب» والأسلوب الهيرودي في الكتابة الذي عكسته شروح الجماعة على سفر حبقوق. وبناءً عليه يجزم الباحثون الليبراليون بعودة الوثائق إلى القرن الأول للميلاد وارتباطها حصرًا بالأسرة الهيرودية والرومان.

وجاء العثور مؤخرًا على إيصالات تسلُّم الجماعة لمواد تموينية من أريحا المجاورة مؤرخة بالعام اثنين لخلاص صهيون أو الثورة ضد روما، داعمًا لموقف الليبراليين، مما ينفي عزلة الجماعة ويثبت اشتراكها في الثورة. إضافة إلى اعتمادها التقويم الروماني أسوة بالمناطق الأخرى.

أكثر من ثلاثة آلاف مؤلف صدرت حتى الآن، في الغرب، عن مخطوطات البحر الميت والجدل الدائر حولها، جاءت غالبيتها مدفوعة بالنفوذ الصهيوني المتجذر، وتهدف إلى إثبات





الآراء والتوجهات اليهودية، فيما بات يُعرف الآن باليهودية المسيحية، إظهارًا بأن ما اعتقده المسيحيون منزلا لا يعدو يهودية متطرفة وليس خروجًا عن دين الآباء، وإنما مذهب من مذاهبهم.. والتربة خصبة بفضل الانفلات والتشرذم الذي تشهده الساحة البروتستانتية، خاصة لدى طوائف الإنجيليين والمعمدانيين.. وما ظاهرة الانتحار الجماعي في الغرب إلا تيمن بالعودة مع السيد المسيح لخوض معركة كونية بشعة وفقًا لنبوءات حزقيال في «العهد القديم».. والعرب التعساء، على اختلاف معتقداتهم، ليسوا سوى عائق في هذه الدائرة الجهنمية يحول دون عودة الشعب المختار برمته، فلا بأس من استئصالهم إيذانًا بالعودة الميمونة المرتقبة..

يحدث هذا في بلاد تبلغ نسبة المتعلمين فيها ٩٩٪، وبالرغم من كل مظاهر الرقي والتقدم العلمي المذهل !!

والآن أخذت الدراسات المتعلقة بوثائق البحر الميت تنحو في اتجاه الموضوعية العلمية، بعد الفشل الذريع الذي واجهته الجهود الحثيثة لإثبات مصداقية برديات العهد القديم، عن التاريخ الغابر للإسرائيليين القدماء في فلسطين وجوارها الجغرافي.. ولا تزال المؤسسات الرسمية تجابه ذلك التوجه الجديد بكل ما لديها من وسائل، تدعي شأن كل المؤسسات الرسمية، امتلاك الحقيقة وحدها وتعمل على قولبة المبادئ والقيم الرفيعة وإخضاعها لمصلحتها، مما يفقدها حيويتها وانطلاقها..

هذه المخطوطات جزء من الإرث الثقافي العربي وقطعة عن تاريخ المنطقة.. تتضمن دعوة صريحة إلى التفكير الموضوعي الجاد، دون إجحاف بالجوهر، وليس هناك أكثر منا حاجة، أيا كان انتماؤنا العقائدي، لتحريك العقل والتحرر من قيد الفهم الحرفي للنصوص الدينية بفرض التلاقي عند القواسم الحيوية المشتركة في مستوياتها العليا الإنسانية والوطنية.. فالحقيقة المطلقة تظل أبدًا واحدة المنبع وإن خضع إدراكها إلى تطور الإنسان وتقدم معارفه.

